صقر البحار

بقلم محمود البدوى

كان البحر عالى الموج والرياح ترمجر والليلة شديدة الظلام ...

وكان الزورق يشق الماء فى جو يسدر بالمواصف والمحدامل يعملان بشدة... ويجهد الرجال الشجعان ليصل الزورق الى مقصده ...

وكان قد ابتعد عن المنيره وخرج الى عرض البحر .. وأصبح تحت رحمه الاقدار ... ولكن الرجال الاشداء الذين يوجهونه ثابتوا يكافحون بسالة ..

ولم تكن العاصفة مقدره .. ولا كانت فى حسبان احد .. ولا كان هناك ادنى احتمال فى ان ينقلب الجو الى هذا السوء ولكن الزورق كان لابد ان يبلغ السفينة فى منتصف الليل مهما كانت الاحوال ماتكون ...

وكان «مرسي» صاحب الزورق الملقب بصقر البحار من امهر الصيادين ورجال البحر فى الاسكندرية اعتاد على المخاطر وركوب الاهوال . وكان يعتمد عليه فى مثل هذه المهمة اعتمادا كليا . ونادر من يقبلها او يرضى القيام بها من اصحاب الزوارق الاخرى .. ولكن صقر البحار كان على استعداد تام لان يبيع نفسه حتى للشيطان اذا دفعت له الاجرة عاليا .

وكان صقر البحار اصغر من رفيقيه فى الرحلة سنا ، ولكنه اشدهم باسا واعظمهم قوة وكان يتوانى القيادة فوق تلك الدفة . وفيه كل طباع القرصان .. ومع ان عهد القرصان قد ولى .. وذهبت أيامه وبقى طلله فى البحار .. ولكن مرسي كان يضحك ويقول . « ان الناس اصبحوا قراصنة على الارض بعد ان اختفى قرصان البحار .. فلماذا لا اعيد للبحر هيبته »

وبعد منتصف الليل وهو يفتش فى الشراع الذى عيبه فى القاع .. فجأة ان يغرق الزورق ويفقده فتكون الكارثة الكبرى .

وكان جسورا بتداما بطبيعه .. وقد اكسبه العيش فى البحر .. جـــراءه وجسارة اكثر .. وقد ذهب بزورقه هذا الى سواحل « الشلم » كمـا ذهب الى قبرص والى « ميريه » .ولم تكن جرأته فى البحار تقف عند حد .

وكان يرتدى سروالا اسمر وقد تمنطق بحزام ووضـــع على صدره مائلة البحار وفوق هذه صدارا قطنيا مخططا راهى الالوان . وغطى راسه بطاقية صوفية ببرتشة حمراء اشبه بصقر الليل .

وكان الملاحان الآخران المرافقان له فى الرحلة يلبسان ملابس الصيادين . وحشا احدهمـــا جيوبه بالتبغ والثلج المجفف . واخذ الرجال الثلاثة يدخنون فى صمت وعيونهم الى البحـر والليـل وكانت العاصفة تزداد عنفا .

وكان هناك المسافر الوحيد فى هذا الزورق .. وقد جلس قابعا مذعورا فى الجزء الخلفى الملاصق للدفة وعلى وجهه كل دلائل القلق والخوف الشديد ..

واخذ الزورق يتأرجح ويعلو به الموج ثم يهبـط .. ومع كل ذلك ظلت ملامح الرجال ساكنة ووجوههم سلمية .وكانوا قد طووا نصف الشراع .. وبدا النصف الاعلى المنشور كافيـا لان يدفع الزورق كالسهم فى مثـــل هذه الريح لو كانت الاحوال طبيعية ولكن صراع الموج كان يعوق الابحار...وكان الزورق يبدو كانه لايتحرك من مكانه .. والبحر يزار بعنف وكان فى اعماقه غيلانا تتقاتل وتحدث الزورق بسلاسل انينها .

عاش الثلاثة رعشاء فى البحر ...

وكانت حياتهم ملتصقة بالبحر ومنزوجة به..وتحت سمائه ياكلون ويشربون .. وينامون ...

وكانت صدورهم المفتوحة وعضلاتهم وسـو عدهم .. ترداد موء وســـلابه فى صراعهم مع الامواج .

وكان « مرسي » على غير عادته قد اخذ يحدث فى هذه الليلة نهول البحر وكانت قوته وحده تعدل قوة رفيقيه .. ثم ترك الجداف لغيره واستغـــرق فى مؤخرة الزورق.. يرقب هناك .. وبدت تلمته الطويلة فى الليل كمارد اسود..

كان طارع الطول عريض الالواح .. وكان يحمل عينيه الحادتين فى اعـــوار البحر .. باحثا عن السمن التى تتحرك هناك ..

وكانت يداه تتحركان الى امام وخلف ثم وضع احداهما فى جيبه واشـــعل لفـــه سيجارة بعد ان انحنى فى القاع ليكون بمنجوة من الريح ..

وبدت عيـــاه حمـــراوين كوهـــج السيجارة التى فى اطـــراف اصابعه . وكانتتحيلته صراعاهيا كثير المخاطر.. وكانت المخاطرة تدفعه لمثلها لو اشـــد منها حتى وجد نفسه اخيرا يعيش فى حلقة مفرغة وكان الصيد ســـتارا لما يقوم به من اعمال خفية ولم يكن يؤمن الا بالشيء الذى سيحصل عليه هو مهما ركب فى سبيله من اخطار .

كان انانيا يدور حول نفسه والانانية هى محور حياته .

وكان عيشه فى البحر قد جعل جلده اسمر كانما سمعته الكفاء ... وكان شعره قصيرا خشنا . وترك شـــاربه مفتولا وكان يعنى به ويدهنه .

ومجاة بر امام عينيه شيء ضـــخم قلم كالجدار كانما خرج من جوف البحر ولم يشاهد « مرسي » السفينة الا وهى امامه .. وكانت صخمة من عدة طوابق وتسير فى الخط المضاد .. وكـــانت تقترب منه كانها متعمدة ســـحقه ولما

اقتربت توضحت معالمها واشراحها وبدت انوارها الضئيلة تسبح الظلمة قليلا .. لاحت في الليل الشديد السواد وهي تتارجح .. كحبات من الدر متناثرة على صبيبة من الرئبق الرجراج .

وكان الموج يدفع السفينة الشامخة ويميل بها الى جانب ولكنها كانت في جبروت واصرار تلتزم خطها المرسوم ..

وكان مرسي يدرك تماما ان السفينة لم ترء ولم تحس وجوده الى جانبها .. قط .. وهما يكن الخطر وينجم في كل لحظة ..

واحس بالدوامة تقترب وكان الزبد الابيض المتخلف من محرك السفينة والذي سيطويهم يقترب منه .. رآه مرسي على مدى امتار قليلة .

تمسك بالقمة في يده وصاح في رفيقيه ورآء ...

واحس المسافر الوحيد بالخطر متجمع على نفسه مرعوبا ..

ورفق الرجال الثلاثة في صوت واحد وقد تحولوا الى مردة .. على المجاديف ... واندفع الزورق الى الامام ثم ارتد الى الخلف مرة اخرى وارتفع كالطود ثم انحنى . وحنى الرجال انهم غاصوا في قاع البحر .. ثم انبعثوا الى صوت المحرك ... مع صفارة السفينة ..

وكأنما جاء الخطر في الليل العاصف مهدات المحركات .. وبرق الزورق من جانب السفينة وخرج الى بحر الامان ..

وران صمت كالحبال على الوجوه المتجهة .. والعيون المحدقة في ذهول .. فقد نجوا من الموت بأعجوبة ...

وتغير وجه مرسي بعد ان اجتاز الخطر ..

وظهر عليه العبوس فقد احس بانها لدلة مشئومة . ولكن لهفته على ان سحر مهجته .. جعلت قلبه الصلد لا يلين ولا يعبأ بما تأتي به الاخطار مراح يحدق الى الامام في سكون ..

وكان البحر يضفي عليه احساسا بالقوة والاخرية ...

***

تحرك المجدافان في الماء واحدا بعد الاخر من قوة ... واحس شعبان احد الملاحين بطقطقة في الحلقة التي تمسك بالمجداف .. ومن سرعة جذب المجدافين الماء واحد بعيد الحمل .. ومتى المجداف الآخر يثير الزبد ..

واستدار الزورق لما نزل المجداف الثاني الى الماء مرة اخرى واخذ يشق طريقه وبدت اضواء السفن من بعيد تتحرك في بطء .. كان المحركات تتقي شر العاصفة ولا تدور الا هونا ...

ونظر مرسي الى ساعته فالفاها الحادية عشرة .. وكان امامه مسيرة ساعة كاملة في هذه الاهوال حتى يلتقي بالسفينة التي يقصدها ...

وكان الزورق رغم العواصف والاهوال يسير في خط مستقيم كأنما يتحرك بمحرك .. كان ينطلق ثم يرتد ولكنه يمضي على سننه في وجهته المرسومة ..

وكان الماء واسعا وخيل الى مرسي عند ما ابعد تماما عن الشاطىء واوغل في اليم انه يسير في وسط المحيط الاطلسي ويتجه قربا الى ابعد مدى .

واعتمد على عامود القمة واخرج لنفسه سيجاره من جيبه واشعلها واخال الطرف فيما حوله ... كان البحر لا زال مهولا .. ولكن السفن بدت كثيرة وراء بعضها كأنما تربطها سلسلة واحدة وهي خارجة لتوها من ميناء

سنويس ... لقد مضت عشرات السنين بالأمس ... وربما عشر اليوم وها هي ذي الآن شهادتي الى كل البحار ..

ظل الرجل في مكانه صامتا حتى رأى النور الذي يحرسه والسارية التي يقصدها .. وكان يعتمد على شعبان اعتمادا كليا مقال في صوت الشوان .

— اننا نقترب ...

— أجل .. يا رئيس ..

— عندما تدور في الخلف الأيسر من السفينة اترك الجداف لحميدو وارتكز انت على المقدمة حتى ترى الزورق يمر بالحبل من السفينة .. وحاذر من السفينة والا اعرقتنا في دوامتها ..

— سنعمل كل ما في وسعنا .. والله يسلم ..

ومرت لحظات وظهر من بعيد هيكل السفينة كالجدار ومر من جانبها زورق صغير وبدا الرجل في الظلمة كالعفاريت ..

ورمع مرسي الحديد عن زورقه وانحنى الى الامام يحدق في الظلمة الحالكة امامه . وقد امسك بيده عمود الدفة ..

ورأى الزورق الاخر على سطح الماء ثم انزلق الى ناحيته وران الصمت .. حتى اقترب الرجل ...

وخرج المسافر الوحيد من مكمنه كالح خارج من قاع الجب ..

واخرج مرسي الصندوق المليء بالسبائك الذهبية .. من قاع الزورق وناوله لشعبان في المقدمة .. وتناول الزورقان ..

ونزل المسافر الوحيد الى الزورق الاخر . وحمل له مرسي الصندوق المليء بالذهب والجواهر .. ووضعه بجانبه في الزورق الاخر وقبل اخر التهريب من المسافر الوحيد .. وعاد الى زورقه وهو يشوان مقد قبض مبلغا ضخما .. يكفيه لان يعيش في رغد ،

ودارت المياه وتحرك الزورق الاخر حركة لولبية ثم عاد الى سفينته مرة اخرى ورمعوه بالحبال والجنازير .

وتسلق الرجال الصعداء لقد قاموا بالمهمة في جو عاصف وموج الامواج المرتفعة .. وسأل مرسي . رفيقيه .

— تعبتم ؟

— ابدا ..

— حركا .. الجداف .. جولة واحدة ثم نرجع للعلم ...

وتسمع حركة .. فالتفت والقى اذنيه .

— اني اسمع حركة ...

وامعت الملاحان ...

— انه طراد ..

— لا .. انه رفاص السواحل .. حل الشاعول يا شعبان .. وشد القلع على آخره ..

— نغرق يا رئيس ...

— الغرق .. خير من القبض علينا .. سيسمونا العداء .. حل يا شعبان حل ..

— نغرق يا رئيس ...

— قلت لك حل ...

وتحرك اليه متقدما الى السارية ..

واندفع شعبان الى الامام .. وعاكسته عقدة في الحبل .. متعلق بالسارية .. ليعالجها .. وجاءت موجة عالية في هذه اللحظة .. رفعت الزورق على صدرها ثم حطته .. وعندما نظر مرسي الى مكان شعبان وجده شاغرا فصرخ في حميدو ... ولكن الزورق كان

يسير بين موج كالجبال مذهب الصراح هناء ...

وكان حميدو يريد ان يغزل وراء شعبان .. ولكن مرسي منعه ..

وكان البحر مهولا .. والحيتان تتراقص بحذاء الزورق .. وطفا شعبان مرة واحدة وهو يصرخ مستنجدا .. ثم ابتلعه اليم ..

***

وشرب مرسي الشاى .. واشعل سيجاره ..

وحلم سكون الموت مهدده المرة الخامسة التي يحدث فيها غرق في حولانه .. كان شعبان الذى غرق من امهر الملاحين وقد اسف عليه ولكن ماذا يجدى الأسف

ولم يحزن مرسي على الرجل الذى غرق واشتهى لانه سيأخذ نصيبه وتقرر ان يعطى ارملة الغريق منحة بسيطة ويأخذ الباقى لنفسه ..

أما حميدو فقد حزن على موت رفيقه واحس بغصة في حلقه ... ولولا خوفه من مرسي لقفز الى الماء وتركه وحيدا ...

ولما وجد الريح قد سكن اطلق الشراع كله .. ورمح .. ورمح المجداف ...

وحلم الصمت من حوله .. وبدا الليل يكشف عباءته .. واخذت نجوم الصباح .. تتألق .

وكان الزورق يطلق فوق الماء في يسر بعد ان سكنت الامواج ..

احس مرسي وهو معتمد على الدفة وقد اطلق « الشراعول » وشد القلع مانه يملك زمام الطبيعة .وان كل شيء رجع اليه كما كان .. وبدا البحر جميلا ازرق .. وصفحة السماء في مثل زرقته ...

لم يحزن على الرجل الذى طواه البحر .. ابدا .. هذا مايحدث لكل من يعمل في البحر وماذا يجدى الحزن .. وماذا يجدى الأسف ..

واحس بالجوع .. فاكل شيئا .. ولم ياكل رفيقه .. واحس بعد الطعام بالدفء ولم تكن الليلة شديدة البرودة .. وان كانت ريح يناير لاتزال تصفع ..

وكان الزورق يشق صدر الماء في يسر والقلع شمالا .. والحبال مشدودة .. والى يساره لاحت انوار معهدة ..

انه يقترب من الشاطىء جدا .. وقد بعد عن الخطر ...

وارتكز ثقلة في مؤخرة الزورق وحول اتجاهه .. ليقترب من الشاطىء اكثر واكثر .. لقد دخل في منطقة الامان ولم يعد البحر يخيفه ..

وتحسس النقود في جلبابه الجلدى .. سيعطى « حميدو » خمسين جنيها فقط وسيقى المبلغ كله له لقد ادى المهمة واستراحت نفسه .. شعر بالارتياح .. كان يشعر بانتهاء النحس كلما مرع من عمل ركب في سبيله المخاطر ..

وملأ رئتيه من هواء البحر .. وتمطى وشعر بلذة من مرع من عمل كبير .. واستحود على اجره كاملا ...

واطلق الزورق ...

وبدت اليابسة على مرمى الافق .. الارض الخضراء .. وكان يحس بالعطش وهو يراها .. ويحس بشوق لان يعود .. الى بيته سليما كما خرج منه ..

لقد انتهى الامر .. وذهبت المخاوف كلها .. وبقرق شعبان اتراح الشؤم كله ...

واحس بانفاس البحر .. وكان اريد يذهب مع الموج ثم يجيء .. رمادا راقيا

واخذ الزورق يميل حتى لامست البلسة .. مع انفاس الصبح .. واشرق نور الصباح .. بهيجا رائعا .. وسيسير في النهار عائدا الى الاسكندرية انه الان على مبعده من رشيد وربما من ادكو .. وسيظل يتهادى بزورقه في عرض البحر حتى مقبل الظلام ... وفي الليل سيدخل الاسكندرية .. ما اجمل الحياة في البحر ...

وقال لحميدو :

— ارمي الشبكة ...

ومع مطلع الشمس سحبناها وكان فيها سمك كثير ..

كان مرسي منهمكا .. وكان رفيقه يلقي بالسمك الحي الى قاع الزورق ويطوي الشبكة في المؤخرة .. ويقوم بعمله العادي في نشاط محبب .. وانسي ما حدث في الليل .. فسيه بسرعة .. لان الحياة ستودعه على ذلك .. وادار الزورق .. وقاده الى حيث يقدر وجود المياه السمكية كان يريد ان يصطاد سمكا كثيرا يملأ به قاع الزورق ليغطي العمل الذي خرج من اجله في الليل فظل يصطاد ويصطاد ... وبدا كل شيء واضحا في الشمس وبهيجا وظل الجو هادئا الى العصر وفي الغروب انقلب الجو مرة اخرى ... وانسي ماضيه وظل الرجلان يكافحان ويقاتلان الامواج بعنف ...

واحس مرسي بموجة عاتية قادمة من بعيد ستدمع الزورق وتحطم السارية وانقلب الزورق من شدة العاصفة واحتواه الماء .. وغاص مرسي في اليم ثم طفى ولما مطر لم يجد الزورق المقلوب ولا حميدو واختفى كل شيء عن نظره

وظل يسبح ثم ادركه التعب وعمل ان يشرف على الغرق انتشله زورق من زوارق الصيادين والقاه الى الشاطيء. وكان في حالة من الغيبوبة ولما افاق لفسه كان متمددا في كوخ بحوار البحر .. والشمس تسطع ...

وكانت هناك امراة واقفة خارج الكوخ ...

كانت منهمكة على العمل .. واقفة كانها تنتظر عودة زوجها الذي ذهب منذ ساعة الى الحقل .. او تتطلع الى اشراقة الصباح .. وكان وجهها يرف كالاقحوان وقد بدت طويلة بلداء السود تقية الشعرة ..

وسألها الرجل الراقد وهو يدير عينيه في ذهول لعله يتذكر ...

— ما الذي جاء بي الى هنا .. ؟

— التقطك صياد .. وانت غريق في البحر — بين الموت والحياة — والقى بك الى الساحل ...

— وأين تقودي ؟

— اي تقود .. ؟

— تقودي الكبيرة حرمه من اوراق المنكوت تلاته الام حبيبه خلت هنا في منطقتي ..

— ربما سقطت في البحر ...

— انها لاتسقط. لقد سرقت مني.. وانتزع المطرق وانا في غيبوبة ...

— ربما فعل هذا الصياد ..

— من يدري وربما غيره ؟

وحدق في وجهها .. كانت رائعة في فقرها الاسمر .. وكانت عيناها السوداوان تشعان بريق اخاذ .

وغاظه ان المال الذي ظل يعد العدة له منذ سنة كاملة .. ذهب سريعا في لحظة عين .. دون ان يدري من الذي اخذه.

واحس بالغضب .. ولكنه الحس

كانت تشله عن الحركه .. وعطر الى المراة مرة اخرى واتهمها وان لم يجد الدليل القاطع ..

وسالها

ـ هل تعرفين الصياد الذى استقلى من البحر ؟

ـ ابدا .. انه غير سبيل .. ربما كان فى طريقه الى الاسكندرية .. او رشيد .. لقد ابتاع منا سجائر .. وانتقل هنا .. وذهب ..

وفكر انها تكذب كذبة بلقاء ..

وسالها

ـ تحت اى بلده نحن ... ؟

ـ انها قريبا من « ادكو »

ورأى رجلا يتقدم فى اتجاه الكوخ .. فسالها

ـ ومن القادم هناك ؟

ـ انه زوجى .. ؟

ورأى رجلا قصيرا يتحرك فى ضوء الضحى .. وكان يحمل ركيبة على عاتقه .. ولما اقترب الملاح من مرسى جلس بجواره يحييه ويسأله

ـ كيف حالك الآن ؟

ـ كما ترى .. بخير .. والشكر لله ولروحتك ...

ـ اعطى شاى بالنعيمة .. وجهزى الغدا للريس .. اسم الكريم .. ؟

ـ مرسى ..

ـ جهزى الغدا للريس مرسى ..

ـ الغدا جاهز ...

ـ اشكرك .. تعشعشى الطعام .. لرجوك اذا مرت سيارة اجرة فى طريقها الى الاسكندرية اوقفها لى .. لاعود لبيتى ..

ـ انت الآن تعمل واذا سافرت .. وانت مريض ستؤذى نفسك ..

ـ لابد ان اذهب الى المستشفى ان الحمى تاكل بدنى ...

ـ حاضر .. سوقف لك سيارة ...

وشرب مرسى الشاى .. واحس بالعرق والنوم يراود اجفانه فتدثر ونام نوما متقطعا الى العصر ولما استيقظ كان يحس الضعف الشديد والرغبة فى النوم مرة اخرى فنام الى الصباح .

وفى الصباح وجد الملاح قد خرج الى حقله .. وكانت نعيمة هناك بعيدة فى الكشك الذى على ناصية الطريق تسمع الدخان والكاروزة المارين ..

والفى نفسه فى الكوخ وحده .. ووجد الفرصة سانحة لتفتش كل حجر وشبر داخلها عن نقوده .. فحرك واخذ يفتش فى كل ركن وفى كل الاشياء « فى العلق » وفى الصندوق وفى الجراب .. وفى الطاقة .. بحث فى هذه الاشياء .. بسرعة ولهفة خشية ان يرجع الرجل او ترجع المراة فجاة .. ولم يجد شيئا فى العلق ولا فى الصندوق ولا فى الطاقه .. فعاد الى مكانه جالسا وفيما هو يدور بعينه فى الحائط .. لمح شيئا ارتجف له قلبه .. لمح شرحا جديدا فى الحائط سوى سبورة لم تجف بعد .. فانتصب وتحسس يده قالب الطوب وانتزعه .. وهشما وجد المجوة .. وقبضت يده على البسكوت .. نقوده بعينها .. نقوده فى الربطه الجلدية التى كان واضعها فى بطانته ...

وكمش بيديه ووضع النقود فى صدره واحتضنها .. وهو شوان لانتصاره ... واستقبل الباب ليفر بها .

وهنا احس بطعنة خنجر حادة تنهد فى ظهره بعنفها طعنات سريعة وسقط مرسى صريعا على الارض فى مدخل الكوخ ..

وفى ظلام الليل .. سحب الملاح القتيل على الرمال الناعمة حتى القاه فى البحر ..